تربية الأطفال

وأثر الاختلاف بين الأبوين فيها

بقلم الأستاذ س . م .

تحنو الأم على طفلها و يتغلب قلبها على عقلها كلما أخطأ . فهى توسع له من رحمتها وتأبى أن تتقاضاه بالعقوبة التى يستحق . وهو لذلك يركن اليها و يفر إلى حضنها كلما وجد من أبيه صرامة أو خشونة . وعادة الأب أن ينظر إلى المستقبل أكثر مما ينظر الى الحاضر فى كل ما يتعلق بأبنائه وأن يسلط عقله على قلبه حتى ولو آلمه هذا . فقد يعاقب الأب ابنه وهو يتألم لهذه العقوبة ولكنه يؤديها واجبا أبويا يعتقد أن مصلحة ابنه تقتضيه لأنه ينشد فى ابنه رجلا للمستقبل و يحب لذلك أن يعتوده عادات الرجولة فى الجد والشجاعة والأمانة والاقتصاد .

ولا بأس فى أن يختلف الأبوان بعض الشىء فى المعاملة لابنهما أحدهما يعامله بقلبه ورحمته ، والآخر يعامله بعقله وحكمته . ولكن إذا أسرف كلاهما فى اتباع خطته فان الفرق بينهما يتحتم أمام الطفل و يعود وكأنه مظلوم من أبيه لا يجد حقه إلا عند أمه . وعندئذ ترى الطفل المدلل . أى ذلك الطفل الذى يطلب من أبيه قرشا زائدا فيجد الرفض . ولكنه لا يبالى هذا الرفض لأنه — بعد أن يخرج أبوه من البيت — سيلجأ الى أمه و يلح فى طلب هذا القرش حتى تدفعه اليه . ونجد ذلك الطفل الذى يرتكب جرما صغيرا يعاقبه أبوه عليه بالتوبيخ والنهر أو بما هو أقسى منهما ، فاذا بكى أمته وربتت عليه ورشته بالحلوى أو القروش كأنها تؤدى له تعويضا عما أنزله أبوه به من قسوة زائدة . ومنطق هذا الطفل ينتهى به إلى أن جرمه الصغير لم يكن يستحق العقوبة وأن أباه لم يكن له الحق فى هذ القسوة والبرهان قائم فى ذهنه على ذلك بما رأى من اختلاف بين أبويه فى معاملته .

وخيبة الأبناء تبدأ من هذه البدايات الصغيرة . فان الطفل فى سنيه الأولى من عمره يتخذ أسلوبا من السلوك وقانونا من الأخلاق كلاهما قد رتب على ما لقى من معاملة أبويه فى هذه السنين . وهو عندئذ يكره أباه و يعده عدوا بكل معنى العداوة . يستثقل ظله و يستخشن صوته و يكره لقاءه و يتعمد ايذاءه و يستغش نصيحته . وكثيرا ما نلقى أطفالا يهزأون بآبائهم و يضحكون من حولهم بحاكاتهم لهم فى حركاتهم وايماءاتهم . ولا سبب لهذه الحال إلا أن هؤلاء الأطفال قد كرهوا آباءهم . ولعل كثيرا من هذه الكراهة يرجع الى أن الأم كانت

تصالح ابنها وترشوه وتدلله كلما أوذى بالعقوبة من والده حتى استقر فى عقل الصغير أن هذا الوالد عدو . ومتى استقرت هذه العاطفة فان من الصعوبة بمكان أن تزول فى المستقبل حتى حين يشب الصبى و يعرف مكانة أبيه ويحكم عقله فى علاقته ...

والعادة أن الطفل يعجب بأبويه — وخاصة بأبيه — إذ لم يجد ما يعوق هذا الاعجاب وهو يجب أن ينشأ على غراره له مثل مقامه وصناعته وهيئته . وقد قيل " كل فتاة بأبيها معجبة " والحقيقة أن كل فتى أيضا كذلك . ولكن اذا كانت الأم قد أفسدت العلاقة بين الأب والابن بالاسراف فى التدليل والمبالغة فى الرحمة فان الطفل ينشأ وهو يكره كل شىء يلابس أباه أى يكره عاداته وأخلاقه وحرفته ويحاول — بعقله الباطن — أن يتجنب و يتحامى كل هذه الأشياء لأنها فى ميزانه النفسى خصال مكروهة من شخصية غير محببة .

وقد يكون الضرر من هذا الاختلاف بين الأبوين فى تربية الأبناء صغيرا عند الأمم الأوربية لأن تربية الأم هناك لا تقل عن تربية الأب . وكلاهما يعرف قيمة الحبس للعاطفة والاستماع لنداء العقل وضرورة الصرامة فى بعض المواقف وضرر التدليل . وكلاهما يعرف أنهما حتى حين يختلفان يجب أن يكون هذا الاختلاف بعيدا عن رؤية الابن . ولكن الحال ليست كذلك فى مصر حيث التقصير واضح فى تربية الأمهات . فان مستوى الرحمة يزيد على مستوى المرأة . وليس هذا فى التحصيل المدرسى أو الثقافة العامة فقط بل أيضا فى الاختبارات الدنيوية والقدرة على الحكم على المستقبل وتمييز النافع من الضار فى كل ما يتعلق بأخلاق الطفل . ولهذا تعد رحمة الأم التى تبلغ حد التدليل للطفل ضررا أكيدا به لأنها تجعله يحس أنه على حق فى كل خلاف ينشأ بينه و بين أبيه . وهذا الشعور ينتهى به الى كراهة المدرسة والواجبات المدرسية وموقف الجد والاقتصاد والوقار الذى يطلبه أبوه منه . ومن هنا تكون حقيقة الرحمة التى تعامل بها الأم ابنها ضربا فظيعا من القسوة لأنها تؤدى الى خيبة بنيها .

ولذلك يجب على الأبوين أن يقف من أبنائهما موقف سليما يدل قبل كل شىء على توفق الوفاق بينهما وتوحد الرأى فى معاملتهما للأطفال . وليس المعنى هنا ألا يختلف بيتان . وإنما نقصد الى أن الاختلاف حين يحدث يجب أن يكون بعيدا عن الأطفال . وخير ما يعامل به الآباء أبناءهم أن يفرضوا أنهم غرباء عنهم وأنهم قضاة عدول . فلا تدليل ولا تقتير ولا قسوة ولا إسراف ولا محاباة بل يعامل الطفل بنزاهة تامة كأنه أجنبى . فاذا أخطأ قيل إنه أخطأ وأوضح له الضرر الماشىء من هذا الخطأ فى غير تخفيف أو مبالغة . ويجب أن يشعر الطفل أن أبويه على رأى واحد فى هذا النظر حتى لا يتشكك ولا يظن أنه مظلوم من ناحية أحدهما أو محابى من ناحية الآخر .

ولما كان لقدوة الأبوين أثر عظيم جدا فى نشأة الطفل فانه يجب على الأبوين أن يسلكا على الدوام السلوك الحسن أمام أبنائهما وألا يرتكب أحدهما أى خطأ يجعل الأطفال يستصغرونه. وأخطر أنواع هذا الخطأ هو الخلاف بين الزوجين أمام أبنائهما وخاصة اذا كان هذا الخلاف بشأن الطفل نفسه أحدهما يقسو والآخر يدلل . وفى مصر يتبز المدلل بأنه " ابن أمه " وفى هذا أسوأ المغزى للأمهات اللاتى يغلبن قلوبهن على عقولهن فى تربية الأبناء . فيجب على الأم أن تذكر أنها ان تعيش الى الأبد لابنها وأنها لا بد تاركته لكى يواجه هذه الدنيا التى لن تحابيه أو ترحمه . وعليها لذلك أن تترك للأب فرصة تربيته وغرس روح الجد واليقظة فى نفسه .

واذا كان هذا هو أثر الاختلاف بين الأبوين فى توجيه الطفل وأسلوب معاملته فاننا يجب أن نجد مثل هذا الأثر مضروبا فى مائة عندما يؤدى الاختلاف بينهما الى شقاق فشاجرة وانفصال فطلاق. فان الطفل هنا يحس أن جذوره العائلية قد نزعت من تربتها وانه يواجه عالما من الفوضى ليس له استقرار . وهو يكد ذهنه الصغير لكى يعرف الحق من الباطل فى هذا الشجار ويجد قلبه موزعا وعقله مظلما مضطربا . و بعيد أن ينجح مثل هذا الطفل فى الحياة بعد هذه الصدمة الأولى. بل أحيانا تتكرر الصدمات وتضطرب حياة هذا الصغير اضطرابا يبدأ ظهوره فى المدرسة ثم فى المجتمع . و يمكن أن يقال بوجه الاجمال أن الصبيان الذين انتهوا الى الإصلاحيات بعد ارتكاب جرائم صغيرة أو كبيرة أو بعد شذوذ أو نشوز قد سبق أن اضطربت حياتهم العائلية بشقاق الآباء بعض الاضطراب أو كل الاضطراب .

فالحياة السعيدة فى البيت حياة الزوجين المثقفين الذين يهتديان بالحب ويستنيران فى تربية الأولاد بالأصول السديدة فى التربية ، هذه الحياة لا تسعد الزوجين فقط بل هى أيضا تسعد الأبناء وتنشئهم النشأة الاجتماعية الصحيحة وتوجههم التوجيه الحسن للنجاح .

س . م .